الفضائل الأخلاقية وأثرها في شخصية الشافعي الإمام المجدد

د. عبد الرزاق أبو البصل
كلية الدعوة وأصول الدين – جامعة أم القرى

المقدمة

فأبعث إلى فضيلتكم البحث المتواضع الموسوم بـ (الفضائل الأخلاقية وأثرها في شخصية الإمام الشافعي رحمه الله تعالى. حيث يتحدث عن المحور الثقافي من محاور المؤتمر الذي تنظمه كلية الآداب والعلوم الإنسانية، في جامعة الأقصى المباركة، وأشكر لفضيلتكم حرصكم على إرسال ما أردت المشاركة فيه، بسبب كثرة الأشغال التي تتناوشني هنا وهناك، وقد كنت أسرق من وقتي لاستكمالها، وعسى أن أعود إليها لاحقاً لتكون لائقة بمكانة هذا الإمام العَلَم الذي لا يوجد في نفسي أكبر منه في علماء الإسلام بعد الصحابة رضوان الله عليهم، وقد صادف هذا المؤتمر رغبة قديمة عندي في التفرغ للكتابة عن المشروع العلمي وعطائه عند الإمام الشافعي رحمه الله، لإظهار جوانب كثيرة تحتاج إلى تجلية في حياة هذا الإمام العبقري،الذي جمع عبقرية الفقيه ومهارة المحدث وتألق المجدد، وبيان أن هذه الأمة فيها من الرجال محل القدوة الذين اهتدوا بهدي النبي ﷺ وطبقوه عملياً في حياتهم، حتى استحقوا أن يشاد بهم، ويشار إليهم بالبنان، بالرغم من تطاول مرور الزمان، **{أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال} سورة الرعد الآية: ١٧** وقد كتب الله للشافعي وإخوانه من الأئمة من القبول لدى الخواص والعوام والفرق ما لم يكتب لغيرهم رحمه الله، وقد كان الشافعي رحمه الله قد ضرب بسهم وافر في مجال الفكر الأخلاقي، حيث كان يتمثلها واقعاً يصدر فيه عن مبادئ راسخة في نفسه، لا عن مواقف آنية انفعل بها وقتاً معيناً ثم لم يعد إليها، بل كانت أخلاقاً راسخة بحق،حتى عُدت ملكات يأتيها من غير تكلف.وإننا اليوم أحوج ما نكون إلى العالم القدوة الذي جمع العلم والعبادة والأخلاق والسلوك واقعاً حياً يراه الناس ويأخذون عنه، خاصة من كان مثل الشافعي رحمه الله يتحرى النصوص الشرعية ويصدر عنها، حتى في فيما لا يأبه به غيره ورحم الله الشافعي في الأولين؛وفي الآخرين، وأعلى درجاته في عليين، وألحقنا به في الصالحين، فشكر الله لفضيلتكم على عقد هذا المؤتمر، وللجنة التحضيرية بلجانها المتعددة وللداعمين للمؤتمر والقائمين عليه والمشاركين فيه وكل من ساهم في إنجاحه و صلى الله على نبينا محمد على آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

الفضائل الأخلاقية لشخصية الإمام المجدد

من المعلوم أن التجديد والإمامة للناس في العلم، وتغيير ما هم عليه من عوائد، أو قضايا فيها خطأ أو نقص أو انحراف مما يحتاج إلى شخصية قوية تتحرر من قيود العادات والبيئات التي يعيش فيها صاحبها، ومما ينبغي أن يكون عليه صاحب هذه الشخصية التي تضطلع بالتغيير أو التجديد أمور عدة منها:

(١) القلب الفتي: لأنه لابد أن يكون صاحب عزيمة وإرادة قوية، أما صاحب القلب الضعيف، فإنه خائر العزيمة، ضعيف الإرادة،ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، فقد كان ذا عزيمة ومضاء، وإرادة وقفت في وجه أعتا المجابهات من كفار قريش ومن شايعهم، حتى ضرب المثل الأعلى في قوة العزيمة، وتغلّب على كل من ناوأه، حتى أظهره الله عليهم، وأظهر ما جاء به من عند الله تعالى على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون. و قد كان للشافعي نصيب من هذه العزيمة والإرادة والتصميم حتى عرف ذلك عنه في صغره رحمه الله تعالى، قال رحمه الله: كانت نهمتي في شيئين: في الرمي وطلب العلم. فنلت من الرمي حتى كنت أصيب عشرة من عشرة. وسكت عن العلم [١].

فقد كان مثابراً واعياً في الطلب والحفظ وحضور مجالس العلم دون كلل أو ملل ولما تكمَّل بالعلم بعد، ((فقد كان الشافعي إماماً دائم العمل، ويعلم الناس ويقدم لهم أدلة الأحكام- فقدم حياته بتمامها،دليلاً على الاجتهاد بالفقه والجهاد بفضائل الإسلام. فصار مثلاً أعلى في العمل. بالكفاح اليومي في سبيل الله، ليل نهار، لا يثنيه الزمهريري الذي يهرأ الدب، ولا تضجره شمس الهواجر. ورمال الصحراء... وبالسهر المضني على مدار العمر. وبالقعود إلى التلاميذ في شتى عواصم الإسلام، لا يُبرمه خرق الخصوم، ولا يسئمه سقمه))[٢]

والأدلة على قلبه الفتي، وعزيمته التي لا يفلها الحديد كثيرة، من هذه الآثار التي تركها في ذلك العمر الذي ملئ به الأرض علماً على قصره بالنسبة إلى غيره رحمه الله رحمه واسعة.

(٢) العقل الكبير[٣]: التجديد يحتاج من صاحبه إلى عقل كبير، لأنه سيتعامل مع الموافق والمخالف ولابد، وسيجد من يعارضه فيما هو بسبيله من التأسيس أو الصياغة الجديدة لقضايا على

---

١ الذهبي، تاريخ الإسلام (٣٠٧/١٤) حوادث (٢٠١ – ٢١٠).

٢ عبد الحليم الحبذي، الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول، ص٢٦٥.

٣ سواء العقل الأخلاقي، أم عقل التجربة، وهو القائل: العقل التجربة.

غير ما عهد من قبل، وقد ورد عن الشافعي ما ينبئ عن استعداده لكل ذلك ؛ فقد قال من واقع التجربة ما يدل على عقله الكبير الذي كان من ثمرته الأخلاق العالية.

١- أن للعقل حداً ينتهي إليه، كما أن للبصر حداً ينتهي إليه١، وهذا من كمال عقله بحيث لا يجربه فيما لا ينبغي له فيفسده.

٢- وقال: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم٢. وهذا عقل قوي بحيث يلزم صاحبه الأخلاق وما يلحقه فيه ذم، فأكثر الناس إنما يلحقهم الذم بسبب دخولهم فيما لا يحسنون من جهة، أو فيما يجلب لهم المعرة لعدم تمييزهم حسن الأشياء من قبحها، أو من عدم رؤية مآلاتها،يقول المنفلوطي:العقل قوة يقتدر بها المرء على الاستمساك في مزالق الشهوات وبين مهاب الأهواء ٣ ويدخل في هذا قوة القلب، وقوة الإرادة، قوة النفس والروح، والتأثير في الآخرين.

٣- وقال: الكيّس العاقل: هو الفطن المتغافل ٤. لأنه لو تتبع الأمور كلها فسدت عليه.

٤- وقال: لو أن رجلاً سوى نفسه حتى صار كالقِدح، لكان في الناس من يعانده ٥. ولذا لابد أن يوطن نفسه على ذلك وإلا لتعب وأتعب.

٥- وقال: ليس بعاقل من لم يأكل مع عدوه في غضارة ثلاثين سنة ٦.

٦- وقال: ما ضحك على خطأ رجل، إلا ثبت صوابه في قبله ٧. وهو يعني أن العاقل لا يفعل ذلك لأنه معصوم إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٧- وقال: من إهانة العلم أن تناظر كل مَن ناظرك، وتقاول كل من قاولك ٨.

٨- وقال: العلم جهل عند أهل الجهل، كما أن الجهل جهل عند أهل العلم. وهو يعني أن العالم لا يبذل علمه عند من لا يقدره.

---

١ مناقب الشافعي للبيهقي (١٨٧/٢) وللرازي ص٣٣٧. آداب الشافعي ومناقبه ص٢٧١. مناقب الشافعي لابن كثير ص٢٣١.

٢ مناقب الشافعي للرازي ص٣٣٩ ومناقب البيهقي (١٩٩/٢).

٣ كلمات المنفلوطي، د.جبرائيل جبور، ص ٢٥.

٦ مناقب الشافعي للرازي (ص ٣٤٠) مناقب هق (٢٠٤/٢).

٧ نفسه (ص٣٤٢). مناقب الشافعي للبيهقي (٢١٤/٢).

٩- وقال: ولذلك قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام: ((ما رأيت رجلاً قط أعقل من الشافعي)) ١. وصدق رحمه الله.

وأختم بقول أحمد لأحد أقرانه لما وجده ترك مجلس ابن عيينة وأضرابه وعاتبه في ذلك فقال له: اسكت، إن فاتك حديث بعلو وجدته بنزول، وإن فاتك عقل هذا أخاف أن لا تجده، ما رأيت أفقه في كتاب الله من هذا الفتى، قلت من هذا؟ فقال: محمد بن إدريس الشافعي ٢. حقاً ما أعقل أحمد حيث عرف قدر عقل الشافعي رحمهما الله تعالى.

وقال يونس بن عبد الأعلى: لو أن عقول الناس كلهم جُعلت في عقل الشافعي لغرقت عقولهم في عقله ٣.

ولم يكتف الشافعي بذلك فحسب، بل كان يربي عقله ويعتني به كما يعتني بصحته.

فقد قال لتلميذه الربيع بن سليمان: الكلام يقظة العقل، و السكوت نومه، فانظر كيف مراعاتك له في نومه ويقظته ٤. واختم بقوله لحرملة بن يحيى: كل ما قلته لكم ولم تشهد عليه عقولكم أو تقبله أو تراه حقاً فلا تقبلوه ؛ فإن العقل مضطر إلى قبول الحق ٥.

و العاقل هو الذي يعرف أهل العقل، فقد قال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: اصطنع رجل إلى رجل من العرب صنيعة فرجع إليه فقال له: آجرك الله من غير أن يبتليك. قال الشافعي: هم أحدُّ الناس عقولاً.

هذا عن عقله الأخلاقي.

أما عن عقل التجربة وهو من أهم ما يلزم من يتصدى للتجديد و التغيير إلى الأحسن حتى لا تفل عزيمته بما يصادمه من أحوال الناس، وقد صدرت عن الإمام الشافعي كلمات تدل على هذا العقل الكبير منها:

---

١ انظر: مناقب الشافعي للبيهقي (١٨٥/٢)، حلية الأولياء (٩٤/٩)، تاريخ بغداد (٦٧/٢)، تاريخ الإسلام (٣١٢/١٤).

٢ ابن حجر، توالي التأنيس ص٨٤.

٣ مناقب الشافعي، للبيهقي (١٨٦/٢) وتاريخ الإسلام (٣١٣/١٤). توالي التأنيس ص٧١.

٤ مناقب الشافعي، للبيهقي (١٨٦/٢).

٥ مناقب الشافعي للبيهقي (١٨٦/٢).

١- قوله: سياسة الناس، أشد من سياسة الدواب ١.

فهو ابن البوادي حيث عاش فيها، ورأى كيف تساس الدواب، و مع ذلك قال ما قال في حق سياسة الناس فقال ذلك بعد التجربة والخبرة.

٢- وقال أيضاً: الذي يحتاج إليه الناس من المرمَّة أكثر مما يحسب، و إن الدواب لتراض فتستقيم ٢. وهو يقصد أن كثيراً من الناس لا يستقيم بعد الرياضة الالتواء طبعه.

٣- وقال: ما أكرمت أحداً فوق مقداره إلا اتضع من قدري عنده بمقدار ما أكرمته به ٣.

وهذا أمر مشاهد يدركه العقلاء من الناس في تعاملهم معهم خاصة غير الأحرار منهم.

و في الحياة الاجتماعية يقول حكمة مهمة: و أحب نكاح ذات الدين و العقل ؛ فإن أهل العقل من كل صنف أقربهم من الدوام على الخير، و الانتقال من الشر ٤.

ونقل عنه المزني أنه قال: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه، و قبل مدح من لا يعرفه ٥.

ونقل عنه الربيع أنه قال: إن أظلم الناس لنفسه من رغب في مودة من لا يراعي حقه ٦.

وقال المزني: سألت الشافعي: مَن السفلة؟ قال: من يكون إكرامه لمخالفيه أكثر من إكرامه لأهل مذهبه، و ليس ذلك إلا لقلة فضله وعلمه، يريد أن يستكثر بهم، و متى يوالي العدو ٧.

لله أبوك يا شافعي، بم تحكم على عصرنا ومن فيه ؛ لو رأيت ما عليه المسلمون اليوم؟!:

و أختم بهذه الحكمة الدالة على العقل الكبير مما نحتاج إليه كثيراً في هذا الزمان،قال أبو الحسن بن مقسم: سمعت أبي يقول: بلغني أن رجلاً قال للشافعي رضي الله عنه أوصني فقال: إن الله خلقك حراً، فكن كما خلقك ٨.

---

١ مناقب الشافعي للبيهقي (٢/٢٠٦).

٢ مناقب الشافعي للبيهقي (٢/١٨٦).

٣ نفسه (٢/١٩٠).

٤ نفسه (٢/١٩٢).

٥ نفسه (٢/١٩٣).

٦ المناقب، للبيهقي (٢/١٩٣).

٧ مناقب الشافعي، للبيهقي (٢/١٩٤-١٩٥).

٨ نفسه، (٢/١٩٧).

و ما أحسنها من نصيحة اسداها الشافعي إلى تلميذه حيث دلّه على السعادة في الحياة و إضاءة النور في جنباتها كما قال المنفلوطي: لا سبيل إلى السعادة في هذه الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حراً لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس، ويقول أيضاً: الحرية شمسٌ يجب أن تشرق في كل نفس، فمن عاش محروماً منها، عاش في ظلمة حالكة تتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر ١.

و قال ليبنز: العقل روح الحرية. نعم هي كما قال.

(٣) النفس الكبيرة: يحتاج المجدد إلى النفس الكبيرة حتى تترفع عن سفساف الأمور والالتزام بمعاليها، حتى تستوعب المخالفين في الرأي الجديد من المحافظين على ما أعتادوا، وإلا فإن ضيّق النفس صغيرها، لا يقدر على المواجهة بصدرٍ رحب كما لا يقدر على احتمال المخالفين. كما قالوا: لا يكون في الصدر إلا واسع الصدر.

هذا وقد نقلت عن الإمام الشافعي كلماتٍ تدل على نفسِه الكبيرة، وعلى ما كان عليه من الأخلاق العالية الرفيعة، التي لا تكون إلا في الكمّل من الرجال، فكيف إذا جمعت معها العلم و الفقه و الدراية بالحديث وروايته، و الهمة العالية في بلوغ أعلى الرتب في العلم والعمل، فقد نصح تلميذه يوسف بن عبد الأعلى فقال له: عاشر كرام الناس تعش كريماً، و لا تعاشر اللِئام فتنسب إلى اللؤ ٢.

وقال أيضاً الكيِّس العاقل ؛ هو الفطن المتغافل. فلا يتابع كل شيء، بل يترفع عن الدنايا.

و قال أيضاً: التواضع من أخلاق الكرام، و التكبر من شيم اللِئام ٣.

و قال: أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، و أكثر الناس فضلاً من لا يرى فضله ٤. وهذا الكمال النفس، والعقل والمروءة.

قال أبو بكر النيسابوري: قال لنا الربيع بن سليمان: دخلت يوماً على الشافعي فقلت له: كيف أصبحت ! فقال: أصبحت ضعيفاً، فقلت: قوّى الله ضعفك.

١ انظر كلمات المنفلوطي. د.جبرائيل جبور ص ١٤.

٢ مناقب الشافعي للبيهقي (١٩٣/٢).

٣ مناقب الشافعي للبيهقي (٢٠٠/٢)، المناقب، للرازي ().

٤ المناقب (٢٠١/٢).

فقال لي: يا ربيع، أجاب الله قلبك و لا أجاب لفظك ؛ إنْ قوى ضعفي عليَّ قتلني، ولكن قل: قواك الله على ضعفك – و في رواية: قال الربيع: و الله ما أردت إلا خيراً. فقال الشافعي: أجل، و الله يا بني لو تشتمني صراحاً لعلمت أنك لم ترد ١.

و أختم بقول يونس بن عبد الأعلى الصدفي عنه: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم أفترقنا، ولقيني، فاخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً و إن لم نتفق في مسألةٍ؟.

قال الذهبي: قلت هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام،وفقه نفسه فما زال النظراء يختلفون ٢.

يقول الأستاذ كامل الشريف رحمه الله: إن إختلاف الرأي كثيراً ما يفرق بين النفوس الصغيرة، كما يقول شيستر فيلد في رسائله.٣

قلت: فالعلماء يختلفون وقلوبهم متفقه ؛ لأن الذي أختلف وجهات نظرهم وعقولهم لا قلوبهم، بخلاف أهل الجهل الذين يكون منهم عكس ذلك.

وقد كان من دلائل تلك النفس الكبيرة، محبته لمعالي الأمور التي يعود نفعها عليه في آخرته، مع التجرد للحق و العمل به طلباً لرضى ربه عز وجل، و النصوص عنه في هذا كثيرةٌ منها قوله: وددت أن الخلق يعلمون ما في هذه الكتب على أن لا ينسبوا إليَّ منها شيئاً. يعني ما وضع من كتبه ٤.

و قال: وددت أن الناس يفهمون ما في كتبي من معاني الكتاب و السنة، و ينشرون ذلك و إن لم ينسبوه إلي ٥. ((فالأخلاق الأصلية ينصب اهتمامها فحسب على النية، أن تريد وأن تعمل ٦)) ((وليس الإنسان بما يفعل، بل بما يريد، بما يرغب فيه بشغف)) ولذلك فإن الأخلاق ليست في العمل المخلص، وإنما فقط في النية المخلصة ٧

١ مناقب الشافعي للبيهقي (٢١٧/٢).

٢ الذهبي، سير أعلام النبلاء، (١٦/١٠).

٣ كامل الشريف، الرياضة العقلية، ص ٢٦٧.

٤ ابن عبد البر، الإنتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء، ص ٨٤ و الخبر عن الربيع عنه.

٥ ابن عبد البر، الإنتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء، ص ٨٤و الخبر عن الزعفراني عنه.

٦ علي عزت بيقوفتش، الإسلام بين الشرق و الغرب ص ٢٠٢.

٧ نفسه ص١٨١

٤- الخلق الزكي: الخلق الزكي من أعظم ما يحتاجه المجدد في حياته لما له من الأثر البالغ في التأثير على الآخرين، و لا يكون الخلق الزكي إلا بالدين المتين، مع الإقتداء بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فقد كان كما وصفه ربه عز وجل چ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ چ القلم: ٤."فالدين مدخل إلى عالم آخر متفوق على هذا العالم، والأخلاق معناه"١.

و قد كان الشافعي على جانب عظيم من الخلق الزكي كما شهد له بذلك من اتصل به وعرفه، ومعلوم أنَّ"قلة قليلة من الناس هي التي تعمل وفقاً لقانون الفضيلة، ولكن هذه القلة هي فخر الجنس البشري، وفخر كل إنسان..."٢.

والسلوك الأخلاقي يقون دائماً على الكمال الروحي... وهو متسق مع الخير المثالي والصدق والعدالة.

فالفعل الأخلاقي الحق هو الفعل الذي يستهدف الكمال الإنساني ٣

المبحث الثاني

الفضائل الخلقية في حياة الإمام الشافعي

كان الشافعي رحمه الله تعالى من العلماء الربانيين الذين تركوا أثراً على من يتصل بهم، وقد كان رحمه الله ممن يراقب أعمال نفسه مراقبة دقيقة، كما كان صارماً معها في الالتزام بالفضائل الخلقية، فقد كانت تمتزج بلحمة ودمه،

فمن تلك الفضائل الخلقية التي بنى عليها مذهبه في الأخلاق، وتحلَّى بها:

أولاً/ مبدأ الحرية:-

كان الشافعي رحمه الله تعالى حراً بما تحمل هذه الكلمة من معاني فحياته شاهد على تلك الحرية التي يعيشها واقعاً، وكانت كلماته تنطق بها تأصيلاً ووصية للآخرين.

وقد نقلت عنه نصوص منها:-

(١)- قوله الحرية هي الكرم والتقوى، فإذا اجتمعا في شخص فهو حر٤.

ولذلك لما جاءه رجل يطلب منه الوصية، فقال له: إنَّ الله خلقك حراً، فكن كما خلقك٥.

---

١ علي عزت بيقوفتش، الإسلام بين الشرق و الغرب ص ١٩١.

٢ على عزت، الإسلام بين الشرق و الغرب ص ١٧٨.

٣ أنظر علي عزت (٢٠٢ – ٢٠٥).

٤ مناقب الشافعي، للبيهقي (٢٠٠/٢).

٥ مناقب الشافعي، للبيهقي (١٩٧/٢).

وهي وصية الإمام علي بن أبي طالب أيضاً لمن طلب منه الوصية، حيث قال لآخر: لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حراً ١.

فالحرية هي المقوم الأول للحياة كما يقول المنفلوطي، وان لا حياة إلا بالحرية ٢. وقد كان الشافعي رحمه الله وهو الذي وُهب ملكة التأصيل لمنهج التفكير في الإسلام بما وضع من مصنفات خاصة الرسالة التي رسم معالمه فيها، قد أصَّل هنا في الأفعال الخلقية بما قال ونصح ووصى لأن ((الحرية هي عِلة الأفعال الخلقية)) كما يقرر الدكتور مقداد يالجن٣.

ولولا الحرية لم تكن مسؤولية ولا تكليف وهذا ما فهمه الإمام الشافعي رحمه الله وقال به، الباحثون في الأخلاق عندما يتكلمون في الإلزام الخلقي يتكلمون عن الحرية، فالشيخ العلامة د. عبد الله دراز قد بنى ((النظرية الأخلاقية كما يمكن استخلاصها من القرآن مقارنة بالنظريات الأخرى قديمها وحديثها)) وبحثها في خمسة مفصول: ١- الإلزام، ٢- المسؤولية، ٣- الجزاء، ٤- النية والدوافع، ٥- الجهد.

ففي فصل ((الإلزام)) يتعرض لموقفين متناقضين، أحدهما: ويمثله ((كانت)) يجعل السلطة التشريعية كلها من شأن العقل الخالص، ويعلي من القانون الشكلي، ويتخذه أساساً للخير.

والآخر على النقيض من ذلك، ويمثله جويو Guyau، ونيتشه، يدافع عن قضية الحرية التجريبية للذات، ويرى أن القيمة الأخلاقية لا توجد مسبقاً في نظام الأشياء الأزلية، بل هي إبداع إنساني يتجاوز به الإنسان نفسه ليصبح فوق الإنسان، ثم يذكر أنه لا يكفي العقل الخالص، ولا الحرية الفردية التجريبية، بل الواجب هو التركيب بينهما، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}** التغابن: ١٦، فهذه الصيغة ليس معناها أن نفعل ما يحلو لنا، وليس معناها أن نخضع للحكم العلوي، وإنما نجد طرفي السلسلة قد اجتمعا.

وفي فصل ((الجزاء)) يستدل بنصوص من التوراة، تثبت أن السعادة الموعودة إنما تكون في طيبات هذا العالم، ويستدل بنصوص من الإنجيل تدل على أن السعادة إنما تكون في الآخرة.

---

١ معجم روائع الحكمة، ص٨٣.

٢ نفسه ص٨٤.

٣ في كتابه علم الأخلاق الإسلامية بعد أن يحث في الفصل الرابع: الاعتداد بالحرية الأخلاقية وذكر الاتجاهات فيها قرر ذلك.

ثم يذكر أنَّ القرآن ((يريد أن يجمع بين هذين المفهومين، والحق أن الأمر بالنسبة إلى القرآن أمر مصالحة وتوفيق، فهو يريد أن يثبت في وحدتها الأولية عنصرين متكاملين لواقع واحد، عمل الشراح الكتابيون بصورة ما على شطره،حيث ألح كل فريق من جانبه إلحاحاً شديداً،على الجانب الذي تركه الآخر في كنف الغموض))١.

ثم أخذ يورد الآيات التي تدل على أن الجزاء، إنما يكون في الدنيا والآخرة معاً، مثل قوله تعالى **{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}البقرة: ٢٠١.** وقوله تعالى:**{ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جزَاءُ مَنْ يفْعلُ ذَلكَ منكُمْ إلاَّ خزْيٌ في الْحيَاة الدُّنْيا ويَوْمَ الْقيامَة يرُدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} البقرة: ٨٥.**

وفي فصل ((النية والدوافع)) يذكر أن فكرة وجود الله ذي الجلال والإكرام وقدرته وعظمته وعلمه في كل مكان، تلك الفكرة التي تملأ نفوسنا اهتماماً بالأخلاق وبالصراحة نحو أنفسنا، هذه الفكرة تخففها فكرة الرحمة التي تمد يدها دائماً إلى أنفسنا، لا من أجل أن تتلقى أولئك الذين يرجعون من غفوتهم، ويحاولون أن ينهضوا من كبوتهم فحسب، ولكن من أجل أن تساعدهم وتمدهم بقوة يتراحب مداها دائماً.

في هذا الضوء يصف لنا القرآن حالة نفس المؤمن، فهي ليست يائسة من روح الله **{يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** } يوسف: ٨٧. ولا هي آمنة من مكره

{فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} الأعراف: ٩٩.

وإنما هي دائماً في منتصف طريق الأمل والخوف، وبالأحرى تغذي كلا الشعورين في وقت واحد **{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** }الزمر: ٩، وإذن فهو حوار حي بين لطف وهمة، وشجاعة وأمل، وهو حوار يتعهد شعلتنا دون أن يحرقنا بها، ويرطب قلوبنا دون أن يسلبها

١ أنظر: ص٢٤٣. دستور الأخلاق.

حميتها، فكل شيء متوازن ومتناسب وهذا هو مجموع الشروط الضرورية، والكافية لبناء عمل دائم وخصب ١.

ثم يعلق في نهاية الأمر ٢ على النظرية الأخلاقية كما صورها القرآن الكريم،فيرى أنها تعمل على التوفيق بين شتى النزعات، وأنها متحررة ونظامية، عقلية وصوفية، لينة وصلبة، واقعية ومثالية، محافظة وتقدمية، وكل ذلك في آن واحد، إلى أن يقول: أنها بناء عضوي حقيقي، تتعاون فيه كل العناصر، وتتساند كل الوظائف، ولقد استطعنا أن نشهد كيف يمتزج المثالي بالواقع.... وصرامة الإطار تسير مع المرونة في المضمون جنباً إلى جنب، فيشتركان في حفظ النظام وفي تحقيق التقدم، ورأينا كيف يكتمل العقل، وكيف يراقب الفرد حسن سير الحياة الأخلاقية العامة، وإن كان مكلفاً بمسؤوليته الخاصة، وكيف يشعر المجتمع من ناحية أخرى بسموه وبحقه المقدس بالنسبة إلى أعضائه.. ثم يشعر في الوقت نفسه بالواجب الملح الذي يقع على كاهله أن يضمن للمحرومين قدراً مناسباً من الرفاهية... هذه الجدلية كلها هذا المد والجز، يتردد حول المبدأ الوحيد الذي يقع في قلب النظام، والذي يمكن أن يتلخص في فكرة التقوى. وهو مفهوم مركب بدورة، لأنه يضم أعمق الاحترام للمثل الأعلى، والبحث عن أفضل الظروف التي تفرضها الطبيعة بقدر الإمكان ٣. فنرى أن ما انتهى إليه علماء الأخلاق ممن كتب عن النظرية الخلقية في القرآن أو الإسلام هو ما قاله الشافعي رحمه الله، حيث فسَّر الحرية التي هي علة الأفعال الخلقية، بالتقوى والكرم.

وأختم بقول الرئيس علي عزت بيجوفيش رحمه الله حيث يقول:في مبحث ((الأخلاق والعقل)): مفهوم الحرية الإنسانية لا ينفصل عن فكرة الأخلاق، فبالرغم مما خضعت له هذه الفكرة من تحورات، ظلَّت الحرية هي ((الثابت)) عند كل تحول أو تطور خلال تاريخ علم الأخلاق.فمثل ما للمكان والكم من أهمية في علم الطبيعة، كانت أهمية الحرية بالنسبة لعلم الأخلاق٤.

قال العلامة محمد الخضر حسين رحمه الله في الكشف عن حقيقة الحرية وأنها تتضمن خصالاً أربع:

١- معرفة الإنسان ما له وما عليه.

---

١ دستور الأخلاق ص٤٨٠.

٢ في ص٦٨٦.

٣ د.عبد الحميد إبراهيم، الوسطية العربية منهج وتطبيق (١/٤٠-٤٣).

٤ علي عزت، الإسلام بين الشرق والغرب ص١٨٥.

٢- شرف نفس يزكي طويتها، ويطهر نواياها فتكون عفيفة.

٣- إذعان يدخل به تحت نظر القوانين المقامة على قواعد الإنصاف ويستنزله ريثما تحرر ذمته من الطالب التي توجه إليها باستحقاق.

٤- عزة الجانب، وشهامة خاطر يشق بها عصا الطاعة للباطل. ١

ولذلك ورد عن الشافعي يبين هذه الخصال:

فقد قال الشافعي رحمه الله: الفتوة حلى الأحرار ٢.

والمراد بالفتوة: إصلاح الباطن من آفات دنيء الأخلاق ليرتفع بها عند الله، ويحظى لديه ٣.

لأن المروءة إصلاح الظاهر من آفات دنؤ الأخلاق وسفسافها ليرتفع بها عند الناس ويحظى لديهم. وإن كان الشافعي فسرها بما هو أتم من ذلك، لكن لما تجتمع مع المروءة يكون معناها هذا، وهناك حكايات كثيرة عن أهل الفتوة وما كانوا عليه من رفيع الأخلاق الدالة على الحرية حقيقة منها:

هذه القصة ((كانت امرأة بنيسابور حملت زوجها إلى القاضي تدعي عليه خمسمائة دينار، فأنكر الرجل، فاستدعى القاضي منها إحضار الشهود، فأحضرتهم، فقالوا: حتى نكشف عن وجهها، ثم نشهد، فهمَّت أن تسفر عن وجهها، فصاح الرجل وأدركته الغيرة، وقال: أنتم تريدون أن تنظروا إلى وجه زوجتي، أيها القاضي أشهد أن لها عليَّ حقاً واجباً ستمائة دينار، فتعجب القاضي والحاضرون من حميته وغيرته، فقالت المرأة: أيها القاضي أشهدك أنه بريء من حقي، وإني قد أحللته من ذلك، فتعجبوا غاية العجب، ثم قال القاضي: اكتبوه وضعوه في باب الفتوة ٤)). وهذا ما أراده الشافعي رحمه الله من معنى الفتوة.

ثانياً/ المروءة:

و من الفضائل الخلقية التي تحلى بها الإمام الشافعي وأقام عليها الأخلاق وجعلها أساساً: المروءة، فقد كان على جانب عظيم منها، و قد نقلت عن الإمام كلمات تبين صدور الأفعال عنده عنها، و أنه لم يفارق المروءة ومقتضياتها في حياته بالرغم مما واجهه من صعوبات وقلاقل...

١ انظر: الحرية في الإسلام ص٣٨ – ٣٩ – ط. مجلة الأزهر.

٢ مناقب الشافعي، للبيهقي (٢/٢٠٠).

٣ القزويني زكريا بن محمد، مفيد العلوم ومبيد الهموم ص٢٧٦.

٤ القزويني، مفيد العلوم ص٢٧٣ وفيه عدة حكايات عن الفتوة.

قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: و الله الذي لا إله إلا هو، لو علمت أن شرب الماء البارد ينقص من مروءتي ما شربته، ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة ١.

و قال أحمد بن محمد بن عبد الله ابن بنت الشافعي قال: حدثني أبي، قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي وهو يعاتب أبا عثمان ابنه، فقال: يا بني و الله لو علمت أن الماء البارد يثلم من مروءتي شيئاً ما شربته إلا حاراً ٢.

فالمروءة تدل على ما كان عليه من الهمة العالية، و الصرامة مع النفس، ولولا ذلك لما بلغ ما بلغ، ولذلك قال هو أصحاب المروءات في جهد٣. وذلك لما تحتاجه من صيانة وتبعات، ومنها: الشفاعة عند الآخرين، وخاصة ذوي الجاه ؛ ولذلك نجده يقول: الشفاعات زكاة المروءات ٤.

وقد فسَّرها الشافعي بقوله: المروءة: عفة الجوارح عما لا يعنيها ٥. وهذا من حقيقتها التي فسرها الخضر حسين رحمه الله، والشافعي أصل ذلك قبله بقرون.

والعفة عما لا يعني مما لا يقدر عليه كل أحد، فإنما تكون في تلك العفة أصحاب الإرادة القوية، و الهمم العالية.

وقد بيَّن الشافعي رحمه الله أركان المروءة عنده، على طريقة الفقهاء وهو إمامهم فقال: المروءة أربعة اركان: حسن الخلق، و السخاء، والتواضع، و النسك ٦.

فجعل حسن الخلق ركناً من أركان المروءة، ولكنه يحتاج إلى غيره، فإننا نجد بعض من يتصف بحسن الخلق، من ذوي المروءة الضعيفة كما هو مشاهد معروف،... ولذا ضم إليه ثلاثة اركان هي من الأهمية بمكان في بيان المروءة التي تمثلها الشافعي رحمه الله واقعاً في حياته، فقد كان على درجة عالية من حسن الخلق، مع جميع الخلق.

وقد نقلت عنه أقوال في ذلك منها:

– قوله: زينة العلماء التقوى، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس ٧.

---

١ مناقب الشافعي، للبيهقي (١٨٧/٢)، ومناقب الشافعي للرازي ص ٣٣٧، توالي التأنيس ().

٢ نفسه (١٨٨/٢).

٣ السابق نفسه.

٤ مناقب الشافعي للبيهقي، (٢٠٦/٢)، مناقب الشافعي للرازي ص ١٢٣، انظر إلزاماً هق (١٠٣/٢).

٥ المناقب (١٨٨/٢).

٦ المناقب (١٨٨/٢).

٧ المناقب (١٤٨/٢).

– وقوله: ليس سرور يعدل صحبة الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم ١.

– وقوله: لا تقصر في حق أخيك اعتماداً على مودته ٢.

– وقوله: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه ٣.

وقد كان الشافعي يستحضر هذا المبدأ الخلقي (الحرية) كثيراً في كلامه وفي تصرفاته.

فقد قال: لا وفاء لعبد، ولا شكر للئيم، ولا صنيعة عند نذل٤. وذلك أن هؤلاء ليسوا أحراراً، ولا لامست الحرية نفوسهم.

ومن هنا قال لبعض تلاميذه: إذا أخطأتك الصنيعة إلى من يتقي الله، فاصطنعها إلى من يتقي العار ٥. لأنهم أحرار يعرفون قدر الصنيعة، ويقدرون أهلها ويعدونها ديناً في أعناقهم. وهذا ما جعله يقول: أصل كل عداوة الصنيعة إلى الأنذال ٦.

أما السخاء: فقد كان طبعاً عند الشافعي، يصدر في هذا الخلق الجليل قدره، العظيم موقعه، عن مبدأ لا عن موقف فحسب، ولذلك كان الكرم لديه سجية حتى إنه لم يمسك مما كان يأتيه شيء، وقد أحبه كل من اختلط به، وخاصة تلاميذه ومن اتصل به من أقاربه وقد أحبه حتى الغرباء منهم، لما كان عليه من الكرم حتى سارت بذكره الركبان، فنقلت أخباره، واستحق الثناء بسببه وملك به نفوس الأحرار من الرجال. وقد كان السخاء عند الشافعي على قسمين ينتظم تحتها أنواعاً كثيرة: سخاء النفس: حيث بذل نفسه ومشاعره لإخوانه وتلاميذه، وأحبهم وبذل ما يستطيع في تعليمهم ونصحهم.

وسخاء اليد وما فيها: حيث بذل ما يقع في يده لسائله، ولغير سائله، ابتداءً وسؤالاً، وكان من شدة سخائه يتحر على عدم قدرته على العطاء لمن يسأله. هذا وقد ورد عنه في هذا المقام وعدم الإنصاف بين المبادئ وتطبيقها عنده في حياته، التزاماً منه بهدي النبي ﷺ، وبآل بين النبي عليهم السلام وقد قال ابن عباس: سادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء. وقد جمعها الله له رحمه الله.

فمن ذلك قوله:

١– من بَرَّك فقد أوثقك، ومن جفاك فقد أطلقك ١.

---

١ مناقب الشافعي للبيهقي (١٩٦/٢ –)، ولابن كثير ص٢٣٢. وتهذيب الأسماء واللغات، للنووي (٥٥/١).

٢ نفسه.

٣ المناقب: ابن كثير ص٢٣٣. تهذيب الأسماء (٥٦/١).

٤ المناقب، البيهقي (١٨٨/٢).

٥ ابن حجر، توالي التأنيس ص١٣٥.

٦ المناقب، البيهقي (١٤٨/٢).

وهذا لا يعرفه إلا الكرام، ولذا يعد كلَّ برٍّ دَيناً في عنقه لا يستريح حتى يؤديه كونه إنساناً حرا لا عبداً و لا يعيش بنفسية العبيد...

وسبق قوله الحرية: هي الكرم و التقوى، فإذا اجتمعتا في شخص فهو حر ٢.

٢- وكان يقول:السخاء والكرم يغطي عيوب الدنيا والآخرة بعد أن لا تلحقه بدعه ٣.

ومما ينسب إليه من الشعر قوله:

وإن كثرت عيوبك في البرايا وسرك أن يكون لها غطاء

تستر بالسخاء فكل عيب يغطيه كما قيل مثل السخاء

٣- قال الحميدي: قدم الشافعي رضي الله عنه، من"صنعاء"إلى"مكة"بعشرة آلاف دينار في منديل، فضرب خباءَه في موضع خارجا من مكة، فكان الناس يأتونه فما برح حتى ذهبت كلها ٤.

هذا كان حاله في أيام شبابه رحمه الله، مما يدل على تأصل هذا الخلق في نفسه.

٤- ولما أودع في السجن بسبب حمله من اليمن مع العلوية واتهامه بالخروج على الخليفة هارون الرشيد في القصة المعروفة، خرج (هرثمة) فأقراني سلام أمير المؤمنين: هارون. قال: وقد أمر لك بخمسة آلاف دينار؛ قال: فحمل إليه المال، فدعى بحجَّام فأخذ من شعري، فأعطاه خمسين دينار، ثم أخذ رقاعاً وصر من تلك الدنانير صرراً ففرقها في القرشيين الذين بالحضرة من أهل مكة حتى ما رجع إلى بيته إلا بأقل من مائة دينار٥.

وقال الربيع بن سليمان: أخذ رجل بركاب الشافعي، فقال الشافعي: يا ربيع، أعطه الأربعة دنانير وأعتذر لي منه ٦.

---

١ مناقب الشافعي للبيهقي (١٩٧/٢).

٢ السبق (٢٠٠/٢).

٣ مناقب الشافعي للبيهقي، الرازي، ص ٣٥٥، دون الجملة الأخيرة:"بعد أن لا تلحقه بدعه".

٤ مناقب الشافعي للبيهقي (٢٢٠/٢)، وانظر حلية الأولياء (١٣٠/٩)، والمناقب للرازي ص ٣٥٥.

٥ مناقب الشافعي، للبيهقي (٢٢٦/٢)، الحلية(١٣١/٩)، وخبر القصة بتمامه في المناقب في الموضع السابق، وساق فيه شعراً منه:

ولو تنازعني كفى إلى خلقي يرزى لقلت لها القيه أو تبيني

لبيك يا كرمي لبيك ثانية لبيك ثالثة من حيث تدعوني

وفيه أيضاً:

و الله لو كرهت كفي مساعدتي لقلتك للكف بيني إذ كرهتيني

٦ البيهقي، المناقب، (٢٢٠/٢).

وفعل مثل ذلك لما سقط سوطه من يده، فوثب غلام من الحذائين فأخذ السوط ومسحه بكمه وأعطاه اياه، تقديراً للشافعي، فقال الشافعي لغلامه: ادفع تلك الدنانير التي معك إلى هذا الفتى. وكانت تسعة أو سبعة كما قال الربيع١، لأن هذا الفعل من الفتى أعجب الشافعي ؛ فأكرمه ولو كانت أكثر لم يمنعه منها. رحمه الله.

وكان من سخائه وكرمه حبه لإكرام إخوانه وتلاميذه، حيث كان يشتري الجارية الصناع التي تطبخ وتعمل الحلوى، ويشترط عليها أن لا يقربها ؛ لأنه كان عليلاً، وكان يقول لهم: تشهوا ما أحببتم، فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون فيقولون لها: اعملي اليوم كذا وكذا، فقال أبو ثور راوي القصة: فكنا نحن الذين نأمرها وهو مسرور بذلك ٢. لأنه رفع الكلفة عنهم. وكان يتفقد تلاميذه واخوانه ويتعهدهم فيصلهم بماله رحمه الله.

لذلك قال الربيع: ولقد سمعنا بالأسخياء، وكان عندنا منهم قوم، وما رأينا مثل الشافعي٣.

– وكان تواضع الشافعي يجمع فيه تواضع الباطن وتواضع الظاهر.

وتواضع الباطن والنفس هو الأهم بالنسبة إلى العالم، والمقصود به الخضوع للحق وقبوله ممن كان، ((الكبر بطر الحق، وغمط الناس)) والتواضع لله ﷻ بسبب الإنعام بالهداية والتوفيق للإيمان الذي هو أعظم نعمة وأولها.

وهذا التواضع لا يكون إلا في الكبراء كما قال الجاحظ: التواضع لا يكون إلا في أكابر الناس، ورؤسائهم وأهل الفضل والعلم)) ٤.

وكذلك كان الشافعي رحمه الله، وهو الذي يقول: ارفع الناس قدراً، من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضاله ٥

وقال البويطي: قدم علينا الشافعي مصر، وكانت"زبيدة"ترسل إليه برزم الوشي والثياب فيقسمها الشافعي بين الناس ٦.

---

١ السابق نفسه، (٢٢١/٢).

٢ البيهقي، المناقب، (٢٢٢/٢)، الحلية لأبي نعيم (١٣٣/٩).

٣ ابن حجر، توالي التأنيس ص١٢٢.

٤ الجاحظ، تهذيب الأخلاق، ص٢٥. ط دار الصحابة.

٥ المناقب، ابن كثير، ص٢٣٣.

٦ البيهقي، المناقب (٢٣٦/٢)، الحلية لأبي نعيم (١٤٢/٩).

ولو ذهبت اسرد من أخبار سخائه لما اتسع البحث له، لأنها تحتاج إلى بحث مفرد خاصة في زماننا الذي بلغ الشح في النفوس مبلغه، وخاصة في أهل العلم الذين نرى أكثرهم – إلا من رحم الله – من أشد الناس حرصاً على الدينار والدرهم والسباق في زيادة الأصفار في أرصدتهم.

والبخل بما عندهم حتى أن كثيراً منهم يحسن الحديث عن الصدقة، والصلة والكرم والسخاء ولا يتعدى كلامه الآذان، لأنه في واقع الحال في وادٍ آخر من كل ذلك نسأل الله السلامة والعافية والستر.

– أما التواضع: فقد ضرب الإمام الشافعي فيه مثلاً لمن بعده، وبين مفهومه للتواضع بيان عالم يؤسس لمذهب أخلاقي صادر عن فهم النصوص الشرعية التي تشبعت بها نفسه فهماً واستيعاباً وخضوعاً، فلم يقف عند المظاهر، وإنما بين الحقائق وطبقها عملياً.

قال الإمام أبو ثور: سمعت الشافعي يقول: ينبغي للفقيه أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله وشكراً له ١.

وقال: التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام ٢

– وقد طبق ذلك عملياً حيث كان خاضعاً للحق بحيث كان يقبله من كل من جاءَه به، وعلّم تلاميذه كيف يكونون مع الحق فقد نقلوا عنه نصوصاً كانت لمن بعده منارات على طريق الحق ينبئ عن النفس العظيمة الخاضعة له.

وقال: الكب كل عيب ٣.

فقد نقل البويطي قال: سمعت الشافعي يقول:

((لقد ألّفت هذه الكتب، ولم آل فيها، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ ؛ لأن الله تعالى يقول: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوْا فِيْهِ اخْتِلاَفًا كَثِيْرًا} النساء: ٨٢، وقد ألف العلامة السبكي رسالته القيمة: قول الإمام المطلبي إذا صح الحديث فهو مذهبي ٤. وقد حشد فيها النصوص الدالة على الالتزام بالنصوص والرجوع إليها.

١ سير أعلام النبلاء (٥٣/١٠)، وتاريخ الإسلام ص ٦٢.

٢ المناقب، ابن كثير ص٢٣٣.

٣ البيهقي، المناقب (٢٠١/٢).

٤ وقد طبعت في ضمن الرسائل المنيرة (٩٨/٣ – ١١٤).

أما النسك: فقد كان الشافعي رحمه الله من النساك الكبار، وقد كان يشغل وقته بالعبادة حتى بورك له فيهما.

وقد كان الشافعي رحمه الله قد ضرب بسهم وافر في أنواع النسك والعبادة فيما تهيأ له أو قدر عليه، وقد تحدث تلاميذه ومن خالطه عن عبادته،وقد كان الشافعي رحمه الله يرى أن ترك العبادة ذنب مستحدث ١.

فقد كان الشافعي كثير التلاوة للقرآن الكريم، ونقل عنه أنه كان يختم كل شهر ثلاثين ختمة، ومع كل الإجتهاد في التفقه و التفقيه والإستنباط، والتصنيف الكثير في الوقت اليسير وسبب ذلك ضبط الوقت وتنظيمه: حيث يقسم ليلة ثلاثة أقسام، الثلث الأول: يكتب، والثلث الثاني: يصلي، والثلث الثالث: ينام ٢.

وقد كان ينام من الليل أيسره ٣.

وهو مع ذلك كان حسن الصوت بالقرآن فقد قال تلميذه بحر بن نصر الخولاني: ما رأيت ولا سمعت كان في عصر الشافعي اتقى لله وأورع من الشافعي، ولا أحسن صوتاً منه بالقرآن ٤.

– وقال: ما تقَّرب إلى الله بعد الفرائض بأفضل من طلب العلم ٥.

– وقال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ٦.

ومن ضروب النسك الدالة على تعظيم الرب ﷻ قوله: ما كذبت قط، ولا حلفت الله صادقاً ولا كاذباً، ولا تركت غسل الجمعة في حر ولا برد، ولا سفر، ولا غيره ٧.

ومنها أنه كان يستقبل البحر في الحراسة في سبيل الله، ويشتغل بقراءة القرآن. رحم الله الشافعي رحمة واسعة وأعلى درجته في عليين ٨.

---

١ ابن حجر، توالي التأسيس، ص ١٣٦.

٢ البيهقي، المناقب، (١٥٧/٢). الرازي: المناقب ص .

٣ السابق (١٥٧/٢)،

٤ نفسه، (١٥٨/٢).

٥ البيهقي، المناقب (١٣٨/٢)، وابن كثير، المناقب ص٢٣٠.

٦ نفسه.

٧ النووي، تهذيب الأسماء واللغات (٥٤/١)، المناقب، ابن كثير ص٢٣١.

٨ افرد البيهقي رحمه الله في المناقب باباً في اجتهاده في العبادة (١٥٧/٢ – ١٨٤).

العدالة والإنصاف:

ومن المبادئ التي أقام الشافعي رحمه الله الأخلاق وطبقها العدالة والإنصاف، فقد كان فيهما عناية والنصوص عنه في هذا كثيرة. لكن اجتزئ بما قاله الحارث بن مسكين رحمه الله، حيث نقل عنه محمد بن عبد الله بن الحكم أنه كان يقول: ما زال في نفسي من الشافعي حتى بلغني أنه سئل عن الأكفاء، فقال: الأكفاء في الدين، ليس الأكفاء من الحسب – وفي بعض النسخ: النسب – في شيء.

فعلمت أنه لم تحوجه إلى هذا إلا الديانة وهو رجل من قريش وقال الشافعي: وليس نكاح غير الكفء محرماً فأرده كل حال، إنما هو نقص على المزوجة والولاة، فإذا رضيت المزوجة ومن له الأمر معها بالنقص لم أرده.

وقال: لو كانت الكفاءَة في النسب لم يكن أحد من خلق الله كفئاً لبنات النبي ﷺ وقد زوج النبي ﷺ ابنته أبا العاص بن الربيع.

وقال الربيع: سأل رجل الشافعي: أيتزوج الرجل بالعربية وهو ليس من العرب، فقال: سل المزني؟ فإني رجل من قريش. قال البيهقي: وإنما قال ذلك لأنه لا يجوز ذلك إلا برضا الولاة الين إليهم أمرها، وبرضاهم وهي رشيدة، فلم يرد تولي الجواب بنفسه وهو قرشي، ولم يحمله كونه قرشياً على أن يرد نكاح غير الكفء في النسب بكل حال ؛ لأنه رأي الحق في غيره، فتبع الحق دون الهوى ١.

وقال الربيع: سئل الشافعي ما الظرف؟ قال الوقوف مع الحق كما وقف ٢.

وهنا يقف الكلام عن الحديث عن هذا العلم من ناحية الفضائل الخلقية، اجتزأت بالمثل عن الأمثلة الكثيرة المتناثرة، وهي التي تندرج تحتها جميع تلك الفضائل التي تمثلها الشافعي في حياته كلها، رحمه الله رحمة واسعة.

نتائج البحث

١– أن الشافعي رحمه الله، كما أصل في الحديث وأصول الفقه، وغيرها من العلوم الشريعة قد ضرب بسهم في التأصيل لعلم الأخلاق أو للفضائل الخلقية، منطلقاً من النصوص الشرعية، ومن الفهم العربي لتلك النصوص بعيداً عما يتكلم فيه أكثر من كتب في الأخلاق من بعض علماء

١ البيهقي، المناقب (٢/١٦١ – ١٦٢).

٢ نفسه (٢/١٦٢).

الأخلاق المسلمين الذين صدروا في معظم كلامهم عن النظرية الأرسطية في الأخلاق إلا في القليل النادر.

٢- أن الشافعي رحمه الله قد أصَّل الأخلاق ما توصل إليه علماء الأخلاق والباحثون فيها بعد قرون متطاولة، مما يدل على عمق النظر ودقته من هذا الإمام العبقري.

٤- أن الشافعي رحمه الله يقدم المثل للعالم القدوة الذي لم يعش الانفصال بين الفكرة والواقع، وقدم لنا أن الأمة قادرة على تقديم هذا بعد عصر الصحابة رضوان الله عليهم، وأن المبادئ الأخلاقية في الإسلام تمثلها رجال التاريخ وعرضه ومنهم الشافعي، ولم تكن مثلاً غير مطبقة كما يزعم.

التوصيات

١. أن النظرية الخلقية عند الإمام الشافعي تحتاج إلى دراسة في ضوء النصوص الكثيرة المنقولة عنه في هذا المقام ونظمها في سلك واحد يليق بهذا الإمام الذي عرف واشتهر وتأصيل غير هذا العلم، ولعل أحد المختصين ينهض بمثل ذلك فيسدي إلى المسلمين خيراً.

٢. أن إحياء هذا الجانب في هذا الزمان في غاية الأهمية لما تعيشه الأمة من تكّسر للقيم والمبادئ. وإن كثيراً منها قد أُدخِل في وسط حامضي إذا به في ضل المادية المغرقة والعولمة التي جاءت على كثير من هذه القيم في حياة كثير من المسلمين، حتى وصل الأمر إلى الخواص فضلاً عن العوام.

والحمد له في البدء والختام والصلاة والسلام على سيد الخلق والأنام وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.